الفكر الجزائري المعاصر ـ مصطفى الأشرف نموذجا ـ

أولا: من هو مصطفى الأشرف ؟

ولد مصطفى الأشرف في 7 مارس 1917 ب"الكرمة" في منطقة "شلالة العذاورة" جنوب شرق ولاية المدية. والتي كانت معروفة خلال فترة الاستعمار الفرنسي باسم "ماجينو"، كان والد مصطفى الأشرف ينشط بصفة قاضي القانون الإسلامي. وزاول مصطفى الأشرف دراسة الثانوية بثانوية "الثعالبي" في الجزائر العاصمة والجامعية بجامعة "السوربون" في باريس، ثم اشتغل في التعليم بثانوية مستغانم وثانوية "لويس لو غران" بباريس. كما اشتغل بمعهد اللغات الشرقية بباريس بصفة مترجم. وفي سنة 1939 التحق بصفته مناضلا من أجل القضية الوطنية بصفوف حزب الشعب الجزائري، ثم انضم إلى الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية التي شغل فيها منصب أمين المجموعة البرلمانية للحزب سنة 1946 قبل أن يغادرها بعد مدة وجيزة، ليتفرغ أساسا للنشاط الصحفي، حيث شغل منصب رئيس التحرير بجريدة "النجم الجزائري" الناطقة بالفرنسية، وهي الجهاز الرسمي لحزب الشعب الجزائري والحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية. وبعد اندلاع ثورة التحرير قرّر مصطفى الأشرف التوقف عن التعليم، وغادر باريس سنة 1954 ليقيم مؤقتا بإسبانيا، أين كان له اتصال بالمرحوم محمد خيضر. وشارك في وفد قادة الثورة الجزائرية الذي ضم أيضا أحمد بن بلة وحسين آيت أحمد ومحمد بوضياف ومحمد خيضر. وقام جيش الاحتلال الفرنسي بتحويل الطائرة التي كان على متنها أعضاء هذا الوفد في 22 أكتوبر 1956. وزج به السجن في كل من "بومات" و"فران" و"فور ليدوت" قبل أن يطلق سراحه سنة 1961 لأسباب صحية، ووضع تحت الإقامة الجبرية. وغادر مصطفى الأشرف فرنسا في سرية تامة متوجها إلى القاهرة، قبل أن يستقر في تونس، حيث كلف بعدة مهام من بينها المساهمة في صياغة "برنامج طرابلس". من ناحية أخرى، شغل الراحل بعد استرجاع الاستقلال منصب رئيس التحرير باليومية الوطنية "المجاهد"، ثم عُيّن في أكتوبر 1965 سفيرا في الأرجنتين ثم في المكسيك. وعُيّن ما بين 1970 و1974 مستشارا لدى رئاسة الجمهورية مكلفا بملف التربية والثقافة قبل تعيينه مجددا سفيرا بأمريكا اللاتينية. وشارك مصطفى الأشرف في تحرير "الميثاق الوطني" سنة 1976 ثم عين وزيرا للتربية من 1977 إلى 1979. والتحق مجددا بالهيئة الدبلوماسية، حيث عين سفيرا بالمكسيك ثم مندوبا دائما للجزائر لدى منظمة "اليونسكو"

ورئيس مهمة بسفارة الجزائر بليما "البيرو". وبعد غيابه عن الساحة السياسية الوطنية عيّنه المرحوم محمد بوضياف سنة 1992 على رأس المجلس الاستشاري الوطني، وهو آخر منصب رسمي شغله قبل وفاته في 13 جانفي 2007.

ثانيا: مؤلفات مصطفى الأشرف

صدرت لمصطفى الأشرف أكثر من عشرة مؤلفات في الفكر الاجتماعي والتاريخ والنقد والإبداع الأدبي، منها: «أغاني الفتيات العربيات» 1953، «صداقة الرجال»، 1954، «الجزائر الأمة والمجتمع» 1965، «كتابات بيداغوجية عن الثقافة والتاريخ والمجتمع»، 1988، «الجزائر والعالم الثالث؛ اعتداءات ومقاومات وتضامن دولي»، 1989، «آداب الكفاح: محاولة تقديم، دراسة وتصديرات»، 1991، «أعلام ومواقع: مذكرات لجزائر منسية»، 1998، «القطائع والنسيان: محاولة لتفسير الأيديولوجيات المتأخرة للتقهقر في الجزائر»، 2004. هذا الكتاب الأخير الذي صدر قبل ثلاث سنوات من وفاته كان عبارة عن مجموعة دراسات أنجزها الأشرف في العقد الأخير من القرن الماضي، تناولت بصورة خاصة ملاحظاته واستنتاجاته حول بعض التفاعلات السياسية والاجتماعية والثقافية في الجزائر والعالم العربي والعالم الثالث بصفة عامة، كفشل مسارات التحديث والتعددية السياسية والأيديولوجيا الأصولية وظاهرة الإرهاب وبعض قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، نذكر منها على سبيل المثال: «تاريخ الأفكار والتوازي السياسي» و«بلد مريض بدينه» و«القطائع والنسيان» و«الأصولية ومخاطرها». وقد منعت الدكتاتوريات في بعض البلدان، مثل جنوب أفريقيا وتشيلي ما بعد الانقلاب على الرئيس سلفادور البيندي، كتب مصطفى الأشرف الفرنسية والمترجمة، من التداول.

وبعد تفجير مبنى مركز التجارة في نيويورك، نشر سلسلة مقالات في مجلات عدة عن وقائع الإرهاب الدولي عبر العالم، أكد فيها أنّ تاريخ الإرهاب الدولي لا يبدأ من 11 سبتمبر2001. وكانت هذه الدراسات مشروع كتاب جديد.

ثالثا: فكر مصطفى الأشرف

1 ـ العمل الوطني: انخرط مصطفى الأشرف في العمل الوطني مبكراً، فانضم إلى «حزب الشعب» الجزائري سنة 1939 وتولى عدة مهام تنظيمية، وتوجه خاصة نحو العمل التعبوي والدعاية الثورية. ومع

اندلاع الثورة في تشرين الثاني/نوفمبر 1954، تولى مهام الاتصال والإعلام والدعاية للثورة، حتى صار أحد منظريها ومنظري حركات التحرر الأيديولوجيين ضد الاستعمار، إلى حين اختطافه. ومع بداية مفاوضات إيفيان بين قيادة الثورة والحكومة الفرنسية في 1961، أُفرج عنه لأسباب صحية، ثم فرضت عليه الإقامة الجبرية في العيادة الطبية، ثم في أحد فنادق فرنسا. لكن الشبكة الأوروبية لدعم الثورة تمكنت من تهريبه إلى تونس، ليلتحق مجدداً برفاقه ويتحمل المسؤوليات، وساعد بآرائه وتجربته الوفد الجزائري المفاوض حول إنهاء الحرب. ومن موقعه كعضو في المجلس الأعلى للثورة، قدّم مصطفى الأشرف في حزيران/يونيو 1962 «برنامج طرابلس» الذي كان قد شارك في إعداده أمام المؤتمر العام للمجلس المنعقد في طرابلس ليبيا لرسم السياسة العامة للبلاد.

بعد الاستقلال عام 1962، تقلّد مناصب سياسية ودبلوماسية عدة، وكان من الدائرة المقرّبة جداً من الرئيس هواري بومدين، حيث أسهم مع رضا مالك ومحمد الصديق بن يحيى وأحمد عكاش وآخرين في رسم معالم السياسة العامة التي انتهجتها الجزائر في الستينيات والسبعينيات. وكان محسوباً على التيار العلماني التنويري، وقد عيّنه الرئيس بومدين وزيراً للتربية عام 1977 بغرض قيادة إصلاح شامل للمنظومة التربوية.

2 ـ من الصحافة السريّة إلى التنظير الاجتماعي: قدّم مصطفى الأشرف للتراث الثقافي والسياسي والتاريخي الجزائري والعربي إسهامات عظيمة. ففضلاً عن تنشيطه للساحة الثقافية في الجزائر وتمثيله لها في العديد من الملتقيات والمنتديات الفكرية في الخارج، شارك بقوة في رسم معالم المشروع الثقافي الوطني لما بعد الاستقلال، وكان يرى أنّه «ينبغي أن يكون تطوراً منطقياً لذخيرة المعارف التي تراكمت لدى الإنسانية على امتداد تاريخها كله». فقد عُرِف المفكر مصطفى الأشرف بروح المقاومة التي برزت لديه من خلال نضاله المبكر بالقلم في العديد من الجرائد السريّة والعلنية الصادرة في الجزائر وخارجها في الفترة الاستعمارية. وبعد الاستقلال تولى الإشراف على صحيفة «المجاهد»، لسان حال «جبهة التحرير الوطني»، وفي الوقت نفسه قدّم إسهامات في بعض المجلات الأجنبية، منها مجلة «الفكر» التي أسّسها المفكر والسياسي التونسي محمد مزالي، ومجلة (Les temps modernes) التي كان يشرف عليها المفكر الفرنسي جون بول سارتر، وفي هذه المجلة بالتحديد نشر في عام 1963 مقالةً عن مستقبل الثقافة الجزائرية، شبّه فيه مهمة ترقية ثقافة جديدة في الظروف الصعبة بـ«العملية الإكلينيكية» التي

«ينبغي أن تجري من دون تردد وبإتقان محكم، وباتخاذ إجراءات جذرية، لا تسمح بأي تمجيد عاطفي للماضي».

وهو ما يكشف عن ميزات عُرِف بها المفكر في دراساته، حيث نجده حريصاً على تحرّي الصدق والموضوعية والتجرد إلى أبعد الحدود من الذاتية، وعلى الجرأة في أعقد المسائل وأخصها، حتى تلك المتصلة بالتاريخ السياسي المعاصر للجزائر، الذي يُعدُّ الأشرف أحد وجوهه. تقرأ مثلاً في كتابه «الجزائر: الأمة والمجتمع»: «مهما يكن من أمر، فإننا لم نكذب على التاريخ ولم نشوّه الظواهر الاجتماعية... فليس في عملنا هذا مجال للحقد أو للحساسيات، وليس فيه تحامل على أحد. إنّها فترة هامة سيكون لها، شئنا أم أبينا، تأثير كبير على مجتمعنا»، ليضيف في موضع آخر من مؤلفه: «على أن بعض المؤرخين الفرنسيين وبعض المفكرين عندنا، ممن يدّعي بأنه ارتقى إلى مرتبة الأيديولوجيين، كثيراً ما رأيناهم غافلين عن الحقائق اليومية، بسبب نظرتهم السطحية واحتقارهم للشعب الجزائري، وكثيراً ما أهملوا الشهادات التي لا تتفق مع تصورهم لعظمة فرنسا أو لبطولة الشعب الجزائري. ولهذا لم يكد أحد منهم يولي انتباهه لمصير المجتمع الجزائري المهدد بالفناء والزوال، وما قام به ذلك المجتمع من عمل شاق، وما بذله من جهود لتوحيد كلمته وللمحافظة على بقائه».

ووصف مصطفى الأشرف ترحيل الفرنسيين لأرشيف الجزائر بعد وقف النار بالسطو، وجاء في الكتاب نفسه: «وقد كان مصير هذه الوثائق السلب والنهب على نطاق واسع، والنقل بعشرات الأطنان إلى فرنسا، بناءً على طلب فئة من هؤلاء المؤرخين»، مضيفاً: « وهكذا، فإن الاستعمار الذي ابتلي به تاريخنا القومي، قد انتهى بعملية سطو كبرى، هدفها استنزاف المصادر الرئيسية لهذا التاريخ أو تحريفها».

3 ـ كتاب (الجزائر، الأمة والمجتمع): اهتم مصطفى الأشرف في كتابه: (الجزائر، الأمة والمجتمع) على البحث عن سمات الشخصية الجزائرية من خلال جملة من الخصائص التكوينية، حيث قام بالبحث عن منابت الشعور الوطني من خلال تفكيك الحضور الاستعماري وتفتيت بُناه، وذلك بعرض التناقضات المختلفة للخطاب الاستعماري ودعواه الأساسية التي حاول أن يُروِّجَ لها بأن الشعب الجزائري متخلّف ولا يستطيع حكم نفسه.

ويرى مصطفى الأشرف أن الجزائريين رغم الاحتلال ومخططاته ومشاريعه، كانوا يشعرون شعور واضحا، وبحكم الفطرة أنهم يؤلفون كيانا قوميا، وأنه لا بد من اليقظة الدائمة من أجل الدفاع عن وطنهم، ويَردُّ هذا الشعور إلى مجموعة من العوامل التي جمعت بينهم: الشعور بالوطن الواحد، الاشتراك التراجيدي العميق، الأرض ذات الحدود الواحدة.

وبالتالي فلا يمكن بأي شكل من الأشكال حسب مصطفى الأشرف إلغاء هذه الأمة تحت أي نظرية أو تسويغ، فهو يبدو مدافعا شرسا عن خيار وجود هذه الأمة في الأزمنة الغابرة، ولا يكتفي بالرد على الاستعمار فقط، بل حتى على دعوة الجبر التي كانت ترى في الاستعمار قدرا محتوما، تلك النظرية الارتكاسية التي تنظر إلى أننا كأمة مسكونة بهاجس القابلية للاستعمار، يبدو أن هذا الكلام الذي ننقله عن مصطفى الأشرف فيه رد قوي على حركة الإصلاح، وبعض أفكار مالك بن نبي، حيث يعتقد أن هؤلاء الجزائريين لا يختلفون عن تسويغ الاستعمار بشكل ما، أو عن شرعنته تاريخيا ونفسيا. حيث يقول: " وربما كانوا معذورين في تحاملهم باعتبار بعض الجزائريين أنفسهم أدى بهم الأمر من حيث لا يشعرون إلى تعزيز النظريات الاستعمارية من الوجهة القانونية، حينما قالوا بأن الاستعمار أمر حتمي قد تفرضه الخطة السياسية، والحكمة الإلهية، وأن هناك تفاوتا بين الشعوب في درجة الحضارة، وأنه توجد عوامل تحدّد القابلية للاستعمار، وهذه القابلية هي نوع من أنواع الاستعداد، وإذا وجد لدى شعب من الشعوب في فترة ما من تاريخه، فإنه يصبح بصورة حتمية خاضعا لسلطة الأجنبي".

ولكن الشعب حسب مصطفى الأشرف قد عمل على تنظيم نفسه بنفسه من خلال تأسيس وعي عميق بمخططات الاستعمار الجهنمية، الذي اهتم بتفكيك نظام القرابة بين القبائل والعشائر في القرى والأرياف، وعمل على تفتيت البورجوازية الصغيرة في المدن، حتى لا يمكن لهذا الشعب أن يقوم ضده، ومع ذلك استطاع الجزائري أن يعيد تنظيم نفسه، من خلال دفع الشعور الوطني من جديد ليلم كل الجروح التي زرعها الاستعمار عبر تصفية عميقة لقضايا الاندماج والتهجين التي قولبها الاستعمار في أشكال قانونية. لقد ساهمت الأسواق والصحف والإرادة العامة لبعض الفرديات الوطنية على إشاعة الشعور الوطني، والعمل على تنظيمه، لتنطلق لحظة التحرير الوطني الكبير، وهذ ما يقرّه في كتابه المهم (أعلام ومعالم) حين يقول: " يجب أن نأخذ بعين الاعتبار هنا جميع تفريعات العينات الاجتماعية (العمال، المالكين الصغار والتجار، المثقفين الخ) التي تشكّلت أثناء قرن أو يزيد، أو في ظرف بضع عشرات السنين،

ضمن الهيكل الاجتماعي لتلك الجزائر المتولّدة من جديد، من تزاوج النزوح الداخلي القديم مع من تبقى من البرجوازية المدنية العريقة، المتراجعة أو المسلوبة، حيث تخمر جمعها بحيوية، جعلته ينفجر في وجه الاستعمار".